17

عوالم أفريقيا

كان جزءاً من رسالة بومدين التي تسلمها من الجزائر تخبره بأنه على أفريقيا فرض نفسها. لقد حان الوقت، كما قال، للهروب من العالم الذي كان يدار من خلال إطار شرقي-غربي. متحدثاً في الأمم المتحدة عام 1974، تحدث عن ملايين الرجال الذين يغادرون من نصف الكرة الجنوبي إلى نصفها الشمالي. وهم لم يذهبوا إليها كأصدقاء ولكن لإحتلالها، كما قال. وقد ذهبوا لإحتلالها مع أبنائهم. إن أرحام نسائنا ستجلب النصر. لم يلقي هذا الخطاب استقبال جيد في نصف الكرة الشمالي. إلا أنه وعلى الرغم من هذه الشراسة، فقد تحدثت دول شمال أفريقيا، التي تركز سكانها على نحو متزايد في المدن الساحلية علي البحر الأبيض المتوسط، عن أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى التي تقع على حدودهم. في الواقع كان لأفريقيا مجالاتها المتميزة الخاصة. كان من الصعب معرفة أين تبدأ أفريقيا ومن يتحدث بإسمها. كانت معظم الدول الأفريقية التي استقرت في العقد الأول أو نحو ذلك من الاستقلال، لا تزال تحمل بصمة الحكام الاستعماريين السابقين.

ادعاء الهوية: الأصالة الفرنكوفونية

كانت العوالم الأفريقية الناطقة بالإنجليزية والناطقة بالفرنسية لا تزال مكتفية ذاتياً، على الرغم من مواجهة نفس مشاكل الوحدة. في تشاد، تحدت الجبهة الوطنية لتحرير تشاد

منذ منتصف الستينات فرانسوا تومبالباي (ولد في 1914)، رئيس تشاد الأول، وهو معلم سابق وناشط نقابي من جنوب البلاد. جاءت المساعدة العسكرية المباشرة لدعم موقفه من جنود المظلات الفرنسيين. في أوائل السبعينات غير تومبالباي مساره معلناً إلتزامه بالأصالة، أي الأفرقة. وإلى الشمال كان لنظام الحكم الليبي وجهة نظره الخاصة حول ما يعنيه ذلك. أطلق على نفسه اسماً جديداً. وأطلق على عاصمته أيضاً اسماً جديداً" نجامينا" والتي كانت تزداد توسعاً في السكان بشكل سريع، مستبدلاً اسم فورت لامي الذي أطلقه الفرنسيين على البلدة الصغيرة التي احتلوها. على الرغم من ذلك كانت لغة التدريس في الجامعة التي افتتحت في 1971 هي الفرنسية. وفرض طقوس استهلال، على الرغم من أن ذلك كان شيئاً خاصاً جداً بشعب سارا. لم يتم الترحيب عالمياً بشكل الأفرقة الذي وضعه. وتم اغتياله في 1975.

شكلت ظروف تشاد تطورها الدقيق إلى هذا الوقت تاريخاً معيناً. على الرغم من ذلك فقد كانت مهمة تحقيق التوازن بين الشعب واللغات والمناطق المختلفة مشتركة بين جميع الدول المجاورة لها، والتي ضاعفها الفقر والهجرة الداخلية. لم يكن النداء من أجل الأصالة في ظل هذه الظروف سوي شيئاً معقداً. لقد كانت كلمة تلائم نوع معين من الخطاب الفرنسي حتى لو كان هدفها هو إعادة التعريج على الماضي الحقيقي الذي كان قبل الإستعمار. لم يفكر الكتاب أو السياسيون بأي حال من الأحوال في الرفض. تلقي الكثير من الحرس القديم في السلطة في هذا العقد تعليمهم في مدرسة ويليام بونتي بداكار. كانت الفرنسة جزءاً من تكوينهم. خدم مديبو كيتا، رئيس مالي، لفترة ما في الجمعية الوطنية بباريس. لم تعجب الحكومات الفرنسية بتوجهه السياسي وهو في منصبه. وكانت المناقشات السياسية لا تزال تصاغ في إطار المفاهيم الفرنسية. في السنغال نفسها، استمر سنغور، الذي ظل في منصبه لما كان في هذه المرحلة دولة ذات حزب واحد، في توسيع عالمه الفرنسي الإفريقي بأسلوب أنيق. إستضافت داكار المؤتمر العالمي الأول لثقافة وفنون السود، والذي خدم أيضاً البحرية الفرنسية: هل يعد ذلك تعايش متكامل؟ ظل لتعاون مع فرنسا رئيسياً بالنسبة لهوفويت بوانيي في ساحل العاج. شهدت البلاد نجاحاً اقتصادياً

من خلال التوسع في إنتاج الكاكاو والقهوة. تدفق المهاجرين من الدول المجاورة. احتفظ بقبضته المحكمة على السلطة، راضياً عن أي تلميح للانفصال الداخلي وساعياً لزعزعة استقرار أنظمة الحكم المجاورة، سواء في غينيا أو داهومي. لقد حلم ببناء كنيسة كبيرة جداً. في غينيا نجا توريه، مع تزايد اللجوء إلى سجن معارضيه في معسكرات سيئة السمعة، ولكن بحلول السبعينات خفت بعض من حماسه الثوري. وبدأ هو أيضاً في السعي للتقرب من فرنسا.

وضيقاً باللغة المتعالية والمباني المرتفعة، شخص النقاد، في الداخل والخارج، المشهد في أجزاء كبيرة من الغرب الفرنسي السابق ووسط أفريقيا بأنه "الاستعمار الجديد". وعلى الرغم من الاستقلال فقد ظل المستشارين ورجال الأعمال الفرنسيين بعض الأحيان داخل الوزارات. وبذلك كانت القوات الفرنسية في عدد من البلاد على أهبة الاستعداد. كان التدخل في الأزمة محصوراً في تشاد. وعلى الرغم من أن مشاركتهم كانت عن طريق الدعوة، فقد كانت هناك طرق لإرسال هذه الدعوات. لم يكن استقلالاً بشكل كبير، كما قال النقاد، بل كان تبعية. وحتى الضجة التي صاحبت الاتفاقات التي تمت في ياوندي عامي 1936و 1969، التي مولت المشاريع الزراعية ومشاريع البنية التحتية في أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، لم تستطع إخفاء الفوائد المتبادلة التي حصل عليها الممولين الأوروبيين، خاصة الفرنسيين، من الترتيبات التجارية المصاحبة. قد تكون الأخوة من نوع معين واضحة، لكن الأحضان الفرنسية لم تكن دائماً أخوية.

على الرغم من ذلك، لم تبدو الحرية والمساواة واضحة في ظل هذا العالم السياسي المتطور. كان العسكريين صغار السن يتحركون خارج ثكناتهم في هذا الجزء من العالم. لقد كان الجندي الشاب موسي ترواري، خريج الأكاديمية العسكرية الفرنسية، هو من أطاح بكيتا في مالي عام 1968. وقبل ذلك بعامين شرع جان بيدل بوكاسا في الخيانة والتي كانت بمثابة مهزلة. كان قد انضم للجيش الفرنسي في سن الـ 18 عام 1939 وحصل على كلا من جوقة الشرف ورتبة فارس. لقد كان رئيس جيش جمهورية أفريقيا الوسطي عند استقلال البلاد في 1960. وشن انقلاب ناجح في 1966. وهنا أصبحت دولة غير ساحلية وذات

كثافة سكانية منخفضة وتنوع عرقي تحت سيطرة شاذة. وغير مكتفياً بجعل نفسه مارشال، فقد كان ذو طموحات إمبريالية وسعي لتحقيقها في العقد التالي. في 1974، أطاح الانقلاب العسكري في النيجر بالحكم المدني ذو الحزب الواحد الذي حافظ عليه حماني ديون منذ الاستقلال. بدت عمليات الاستحواذ هذه، سواء الزائلة أو الدائمة، متوطنة. وكانت هذه هي الطريقة التي سار عليها العالم.

ادعاء الهوية: الأصالة الناطقة بالإنجليزية

لم تبدو غرب أفريقيا الناطقة بالإنجليزية مختلفة تماماً. في نشر المنفي الغاني أفكاره في كتابه "تحدي أفريقيا". كان كوفي بوسيا يقضي بعض الوقت في بيئة أكاديمية في أكسفورد وهولندا. كان قد كتب فى وقت سابق أطروحة أوكسفورد، في 1951، عن موقف الرئيس في النظام السياسي الحديث للأشانتي، وقد جاء هو نفسه من سلالة ملكية. تشكلت مسيحيته من قبل الميثودية الإنجليزية التي زرعت فيه. لقد كان من أول الأفارقه الذين دخلوا في إدارة الاستعمار في جولد كوست، لكنه لم ير أي مستقبل في هذا الاتجاه. وكعالم اجتماع، أصبح هو أول أستاذ أفريقي في جامعته. لم يفكر أي غاني أكثر منه في حياة بلاده بعد الاستقلال. وبعد ثلاثة سنوات من الحكم العسكري التي تبعت خلع نكروما في 1966، أصبح بوسيا رئيساً للوزراء في إدارة مدنية. كانت المشاكل الاقتصادية التي يواجهها شاقة، لكن الإجراءات التي اتخذها، والتي تضمنت تخفيضاً قاسياً، لم تساعده كثيراً. لم يكن ذكائه ولا نزاهته في موضع شك لكن ملائمته كانت كذلك. في 1972، في حين كان بعيداً في لندن، تمت الإطاحة به من قبل لجنة عسكرية تسمي نفسها مجلس الخلاص الوطني. كان رئيسها عقيد آخر، أغناطيوس أتشيبونج. بالنظر للوضع الاقتصادي العالمي، كان من غير المرجح حدوث تحول اقتصادي سريع. اعتقد المجلس بأن الدولة بحاجة للخلاص. كان أحد شاعراته هو أن غانا يجب أن تظل على اليمين، ليس في السياسة، ولكن تخلياً عن العادة البريطانية السخيفة في القيادة على اليسار. في الحقيقة لم يكن بوسيا سياسياً وقد توفي في غضون بضع سنوات. صارعت كتاباته الأصالة. جلب الحكم الاستعماري كل من الاستعباد العقلي والتحرير. لم يكن من السهل

محو تأثيره، سواء الجيد أو السيئ، من الذاكرة المعاصرة. لقد اعتبر نفسه في موطنه في أوكسفورد ملما عما كان في أكرا. والآن في عالم ما بعد الاستعمار، شكلت كيفية تعايش مجتمعه ونوع الديموقراطية التي يمكن أن يحققها "تحدي أفريقيا". في الواقع كان هناك العديد من التحديات والعديد من أفريقيا.

في يناير 1967، استضاف الحاكم الغاني، الجنرال أنكراه، مؤتمراً في غانا لمحاولة حل الأزمة في نيجيريا وبدا أنه حقق بعض النجاح. ومنذ حدوث أول انقلاب عسكري هناك في العام الماضي، والذي شهد مقتل رؤساء وزارات شماليين، سيدي أبو بكر باليوا، وسوندرا رئيس سوكوتر وآخرين، احتفظ سلسلة من القادة العسكريين بالسلطة والهيمنة. كان آخرهم العقيد ياكوبو جوون، مسيحي شمالي. كانت هناك ضجة حول عودة الحكم المدني. كانت هناك موافقة مرة أخرى على التعريج على الهيكل الاتحادي. لا يزال يتمحور التوتر حول مصير شعب الإيبو. وباعتبارهم مهيمنين، عندما يكونوا خارج موطنهم وهو المنطقة الشرقية، فقد خشي هم أنفسهم من حدوث مذبحة. عين اودوميجو اوجوكو (ولد في 1933)، وهو من الإيبو ولكن ولد في الشمال، حاكماً عسكريا للمنطقة الشرقية في أوائل 1966. وقد خلص إلى أن شعب الإيبو لن يحصل على الأمن إلا من خلال الانفصال عن نيجيريا وتشكيل دولة خاصة بهم. كان والده رجل أعمال ثري جداً منح لقب فارس من قبل البريطانيين. أرسل الشاب إلى إنجلترا في المدرسة والجامعة (حصل على شهادة في التاريخ من جامعة أوكسفورد). وعند عودته لوطنه، انضم للجيش وتلقي ترقية سريعة. بدا في مؤتمر غانا معتدلاً في رغبته في الإنفصال عن نيجيريا ولكن في مايو، بعد الحصول على موافقة الجمعية الإقليمية، أعلن بيافرا دولة مستقلة.

كانت الرهانات مرتفعة. بالنظر لدول أخرى في غرب أفريقيا يمكن القول بأن نموذج بيافرا غير قابل للتطبيق. إلا أنه إذا كان قد نجح في الانفصال بنجاح، فسيكون من المرجح أن يؤدي إلى المزيد من الانشقاقات وإلى الانفصال الكامل ليس فقط عن نيجيريا، مما سيشكل نموذج يتبع في أي مكان آخر. أحدث جون توسعاً كبيراً في الجيش الاتحادي وتلا ذلك نشوب حرب أهلية مريرة. قاوم المشاركين المحاولات التي تقوم بها منظمة

الوحدة الأفريقية وغيرها للتهدئة. شنت حرباً إعلامية كبيرة. تحيزت الحكومة البريطانية للجانب الإتحادي وأمدته بالأسلحة (كما فعل الاتحاد السوفيتي). كان أوجوكو مشمئزاً. حصل على إمدادات بالأسلحة من فرنسا ومع تدهور الأوضاع جاءت المساعدات من جمعيات خيرية كاثوليكية في شتي أرجاء العالم. وفي ساحل العاج، والذي كان قد اعترف ببيافرا، وجد أجوكوا ملاذاً عندما انتهت مقاومة بيافرا في يناير 1970. سرت دول غرب أفريقية أخرى، والتي كانت على دراية تامة بتعددها العرقي، بالمراقبة والانتظار.

كانت النتيجة هي تأييد سلامة أراضي الدول. إلا أن ذلك ترك نيجيريا في حالة غير مستقرة وغير صالحة في هذه اللحظة لأي حكم بإسم أفريقيا. كان الإعتراف العاجي ببيافرا أحد الإشارات على أن الدول المتحدثة بالفرنسية تحمل العداء للهيمنة النيجيرية. جعلت هذه المشاعر من الصعب تطوير غرب أفريقيا كموقع عالمي. ومع ذلك في مايو 1975، أنشئت خمسة عشر دولة غرب أفريقية الجمعية الاقتصادية لدول غرب أفريقيا. في فبراير ووفقاً لبنود إتفاقية لومي التي عقدت بين الجمعية اللإقتصادية الأوروبية (كتلة جديدة من المستعمرات الأوروبية السابقة في أفريقيا) ودول الكاريبي (المحيط الهادئ)، حصلت الدول الأفريقية على إتفاق تجاري أفضل مما حصلوا عليه بموجب إتفاقات ياوندي. بدا صندوق تثبيت أسعار السلع مفيداً بشكل خاص. ومع ذلك عارض النقاد ترسيخ وجود وجهات النظر الأورو- أفريقية التي عفا عليها الزمن، والتي كانت أفريقيا هي الشريك الأضعف فيها. كان لنيجيريا بالفعل إحتمالية القيادة. أعطت مواردها النفطية فرص استثنائية للدولة. لقد أعطوا الأفراد أيضاً فرصاً إستثنائية للعمل. قد يكون النفط لعنة محلية بقدر ما هو نعمة. كان هناك العديد من المشاكل الأخرى. أورثت الحرب جيشاً متفاخراً ونزاعاً مستمراً حول التوازن المناسب للدولة الإتحادية. زاد جون من عدد الدول ولكن توازن السكان، سواء من تكوين عرقي أو لغوي، وروابط الاتصال نادراً ما تطابقت. كانت أرقام التعداد دائماً مثيرة للجدل. ظل جون مسيطراً، كلما أمكن ذلك. كان الحكم العسكري هو النظام الحالي. وكذلك كان الحال في سيراليون بعد الانقلابات في عامي 1967 و1968.

وكانت النتيجة، بحلول عام 1975، هي تخلي جميع المناطق البريطانية الغرب أفريقية عن أشكال حكومتها في وقت الاستقلال. كانت مواقعهم المتفرقة وأحجامهم المختلفة تعني أنهم بالكاد يشكلون كتلة. كانت لديهم نقاط إتصال فردية وليست جماعية بلندن. إلا أن استمرار اللغة الإنجليزية في نيجيريا لم يؤدي بالضرورة إلى إدامة المحور البريطاني النيجيري (على الرغم من هجرة موجات صغيرة من النيجيريين إلى إنجلترا). أشار المعلقون إلى ما أسموه أمركة الحياة النيجيرية. إذا كان ذلك يحدث من الناحية التجارية والثقافية فكان من الغريب ملاحظة ضعف الهيمنة في ليبيريا علي نسبتها الضئيلة من الأمريكيين الليبيريين في هذه المرحلة الغريبة من خلق عالم في وقت سابق، كما بدا الأمر. تولي ويليام ريتشارد تولبرت، وهو حفيد عبد محرر من تشارلستون، منصب الرئيس في 1971. لقد تكبد عناء تعلم أحد اللغات الأصلية لبلده ولكن سكانها من الأفارقة لم يبدو متسامحين حيال هيمنة العشائر الأمريكية لفترة أطول من ذلك. وكانت هناك قضية مماثلة في سيراليون حيث انضمت المستعمرة الأصلية مع حكومة المناطق النائية.

روديسيا: الحكم أحادي الجانب

في يناير 1966 عقدت رابطة الأمم مؤتمراً خاصاً في لاجوس. وكانت تلك هي المرة الأولي التي اجتمعوا فيها خارج المملكة المتحدة. وهذا في حد ذاته كان رمزياً. لقد اجتمعت في نيجيريا لأنها واجهت مشكلة أفريقية. في نوفمبر 1965، أعلن إيان سميث، رئيس وزراء روديسيا، استقلال بلاده من جانب واحد. كان سميث نفسه، والذي ولد لأب وأم روديسيين ولكن هاجروا من بريطانيا، قد عاد للطيران كطيار مقاتل مع القوات الجوية الملكية خلال الحرب العالمية الثانية قبل العودة للوطن. وبعد عشرين عاماً لم يتغير سميث ولكن العالم تغير. كانت لحكومته، المنتخبة من قبل الأقلية البيضاء-5.5٪ من السكان- في 1970، طريقتها الخاصة في الإدارة، مهما كان ما يعتقده من يديرون بريطانيا الآن. رفضت بريطانيا الإعتراف بالدولة وفرضت قيوداً تجارية وحظر على النفط. أراد أعضاء الكومنولث الأفريقية أن تذهب بريطانيا إلى أبعد من ذلك وأن تضع يدها بقوة في لاجوس. استبعد رئيس الوزراء ويلسون استخدام القوة وادعي أن العقوبات ستكون

فعالة بشكل سريع، لكن لم يكن هناك أي نتائج سريعة. لم تسفر المحادثات مع سميث، سواء مباشرة أو من خلال وسطاء إلى أي شيء. ومرت سنوات.

في مارس 1970 أعلنت روديسيا نفسها جمهورية وظلت كذلك لخمس سنوات. ولكنها الآن تورطت في حرب مع اثنين من قوات حرب العصابات، جيش الشعب الزيمبابوي الثوري والجناح العسكري لجوشوا نكومو (ولد في 1917- اتحاد الشعب الزيمبابوي الأفريقي) المؤسس حديثاً في زامبيا، وجيش التحرير الوطني الزيمبابوي لروبرت موجابي (ولد في 1924) والجناح العسكري للاتحاد الوطني الأفريقي الزيمبابوي المؤسس حديثاً في موزمبيق. كانت قوة كل منهما واضحة بين شعوب الندبيلي والشونا، ولكن التنافس بين هذين الرجلين كان شخصياً بقدر ما كان عرقياً. كان عالم موجابي الأفريقي، الذي درس في كلية ماريست وكان كاثوليكياً مؤمناً، أكثر تنوعاً وشمولاً من عالم نكومو. كان للفترة التي قضاها في غانا الأثر الأكبر على تفكيره. وفي العقد الذي تلا 1964، قضي كلا من موجابي ونكومو معظم الوقت في سجون روديسيا. لم يتم التوصل بعد لنهاية اللعبة الروديسية.

اعتقدت دول الكومنولث الأفريقية أن بريطانيا، في ظل الحكومات المتعاقبة، فشلت في أخذ روديسيا على محمل الجد. أثرت هذه القضية بشكل سيء على الرأي البريطاني. لقد كشفت عن مدي تغير العالم ومدي عدم تماسك السياسة. لقد كان هناك دعماً ضئيلاً للتدخل البريطاني العسكري المباشر لإسقاط حكومة سالزبوري (هراري). كان هناك بعض الدعم، ولكنه ليس كبيراً، لحكم الأقلية البيضاء. ومن الناحية الأخرى، واعتماداً علي ما كان يبدو أنه يحدث في كل مكان في أفريقيا، تطورت السخرية حول حكم الأغلبية السوداء ومصير الحقوق الدستورية الراسخة. تم التخلي عن الطيار الروديسي بسلاح الجو الملكي والذي طار بشجاعة إلى بريطانيا للدفاع عن القيم المتحضرة، كما شعر بعض من أبناء جيله. شعر الجيل الأصغر بقليل من التعاطف. إن فشل حكومة المملكة المتحدة في إسقاط نظام حكم سميث أو إجباره على قبول الهزيمة على طاولة المفاوضات استمر في إثارة استياء أعضاء الدول الأفريقية بالكومونولث حتى أوائل السبعينات. لقد وضعت

الجمعية نفسها تحت مزيد من التدقيق. لقد كان لديها الأمانة الخاصة بها في لندن وكان الدبلوماسي الكندي هو أول أمين عام لها. وقام بزيارة عواصم دول الكومنولث. لقد كان يستخدم كتيب منظمات الكومنولث، الذي نشر في 1965، والذي أدرج أكثر من مائتي هيئة مصممة في مجالات متنوعة لتعزيز الاتصالات المهنية والصداقة الشخصية في جميع أنحاء عالم الكومنولث. وفي بريطانيا اختفت أي فكرة تشير إلى أن الكومنولث كان هيئة تعكس وجهة النظر البريطانية فقط. إستاءت الحكومة مع توجهها الأوروبي، من مدي تغطرس الدول الأفريقية. رأي مؤتمراً آخر للكومنولث، والذي عقد هذه المرة في أوتوا في 1973، أن الحكومة البريطانية لا تزال تؤكد على أن روديسيا تحت مسئوليتها وأنها ستفعل ما تراه مناسباً. تلاشت محادثات الكومنولث، ولكن أصبح هناك إدراك أكثر وضوحا في العديد من العواصم أنه لم يكن لديها سياسة عالمية.

البرتغال في أفريقيا: الأولي في الدخول والأخيرة في الخروج

جلبت روديسيا تاريخاً أوروأفريقياً واحداً إلى محور التركيز، وجلبت أنجولا وموزمبيق تاريخاً آخر. أصبح مارسيلو كايتانو (ولد في 1906) رئيساً للوزراء في البرتغال في 1968. لقد كان مؤيداً قوياً للدولة الجديدة التي كانت عليها البرتغال لمدة أربعين عاماً. في حين قد يكون هناك تغيير في الحافة، فإنه سيحافظ على موقفه الاستبدادي. أعطته مؤلفاته في مجال القانون الإداري تميزاً أكاديمياً. لقد كانت المشاكل الإدارية والسياسية العملية هي ما واجهته. كان للبرتغال إقليمين، في أنجولا وموزمبيق، والتي أسمتها منذ أوائل الخمسينات "مقاطعات ما وراء البحار". وقد جعلها ذلك مختلفة عن مستعمرات الدول الأوروبية الأخرى والتي كانت في طريقها للاستقلال. حتى وفاته، كان سالازار يؤكد أن المهمة الأفريقية لبلاده كانت مهمة حضارية. وبعد 1945 ظلت البرتغال خارج نطاق دعم أوروبا الغربية. كانت الإمبراطورية تطمئن حكامها بأن الدولة لم تكن فقط رجعيةً وهامشيةً. كانت الفرص للقطاعات الفقيرة من السكان متاحة من خلال الهجرة عن طريق البحر. بخلاف بريطانيا وفرنسا في أفريقيا، فقد أحكمت البرتغال سيطرتها على الأراضي التابعة لها في أفريقيا، رغم بعض التعثر (وكانت أكثر إحكاماً على الساحل أكثر

منها في الداخل على نحوٍ لا يمكن إنكاره). وجدت موزمبيق قناة اتصال استطاعت من خلالها نقل الإمدادات الحيوية، على الرغم من الحصار البحري الذي فرضته بريطانيا، ليصل إلى جارتها روديسيا. كان نظام سميث بحاجة إلى التفاهم في ذلك مع السلطات البرتغالية في لورينزو ماركيز، فهم بالتالي كانوا يتعاملون مع فريليمو (جبهة تحرير موزمبيق)، وهي حركة حرب العصابات التي أُطلقت أخيراً لتطالب بالاستقلال. انضم الشباب الذين تلقوا تعليمهم غالباً باللغة البرتغالية وفي مدارس تبشيرية كاثوليكية تحت راية تدعي على الأقل أنها ماركسية. كان الخليج يفصل بين العالم الذي يتحدث البرتغالية لمرض يُدعى سامرا ماتشيل (المولود عام 1933)، أحد قادة فريليمو، وعالم البروفيسور كايتانو. لم يقم ماتشيل بزيارة البرتغال، ولم يكن كايتانو يعرف بشكل مباشر أقاليم ما وراء البحار. كان يبدو في البداية أن القوات البرتغالية قادرة على احتواء العصيان المسلح الذي كان ماتشيل العقل المدبر له هو ورفقائه مثيري النزاع. كانت الخصومة للعدو هي السمة التي تغلب على المظلومين أكثر من الوحدة. مرة أخرى كان الوضع هو أن القوات التي تحكم السيطرة على المدن لا يمكنها فعل ذلك في الريف، والعكس صحيح. قد يستمر الصراع لفترة طويلة. ونفس القواعد وُجدت في أنغولا على الرغم من أنه من البداية كان من الواضح أن النضال على أربعِ طرق. كانت أكبر الحركات، الحركة الشعبية لتحرير أنغولا والاتحاد الوطني للاستقلال التام لأنغولا والجبهة الوطنية لتحرير أنغولا، على قدر تناحرهم من أجل الحصول على مكانةٍ على قدر سعيهم لهزيمة الجيش البرتغالي. وبالتالي يعكس هذا حقيقة أن جميع هذه الحركات لها مؤيدون من الخارج تسعى لأهداف أكبر من مجرد كونهم مواطنين أنغوليين. توجه أوغوستينو نيتو، قائد الحركة الشعبية لتحرير أنغولا الذي قضى سنواتٍ كثيرة في البرتغال كطالبٍ يدرس الطب (وكسجينٍ أيضاً)، صوب الاتحاد السوفيتي (كوبا). سوف يسير التحرير والتحديث جنباً إلى جنب، وكان النموذج الكوبي جذاباً. أما بالنسبة لجوناس سافيمبي وروبيرتو هولدين لا يمكن التنبؤ بميولهم الأيدولوجية إلا أنه من الطبيعي أن تكون ذو نفسٍ غربي. وكان سافيمبي الذي قضى سنواتِ عمره الأولى في البرتغال وسويسرا وأماكن أخرى، يفخر بأنه يتقن عدة لغات – أوروبية وأفريقية، وهو ما جعله، حسب رأيه، أنه شخصية عالمية. كان الموقف

الأيديولوجي يسير جنباً إلى جنب والطموح الشخصي والولاءات الإقليمية. أياً كان المسار الذي اتبعوه في النهاية، لا يمكن إغفال الدور الهام الذي لعبته الإرساليات البروتستانتية والنسب في المرحلة الأولى من التنشئة، وهو ما خلف لديهم حماساً أقل للبرتغال الكاثوليكية. في مراحل مختلفة من الماضي، كانت البرتغال تحلم بأن تضم أنغولا إلى موزمبيق في دولة واحدة مركزية أفريقيةٍ تابعة للبرتغال تمتد بين الساحلين، إلا أن هذه الأحلام لم تصبح يوماً حقيقة. إذ وجد الجيش البرتغالي نفسه متورطاً في صراعات مديدة، ناهيك عن غيرها من الصراعات في غينيا البرتغالية. لم يكن الأمر يتعلق بالفوز أو الخسارة، ولكنها كانت تجربة بائسة للجنود، وسادت حالة من السخط بين صفوف الجيش من قمة هرمه إلى أدناه. ومن ناحيتها كانت الحكومة قلقة بشأن الميزانية التي خُصص منها جزءٌ كبيرٌ للإنفاق على الجيش. لم تكتفي حركة من القوات المسلحة بمجرد الشكوى للجنرالات سبينولا وجومس وذهبوا إلى أبعد من ذلك حينما نجحوا في القيام بانقلاب عسكري عام 1974، وهو ما نتج عنه تولي مجلس عسكري الحكم إلى جانب سبينولا كرئيسٍ أولي، لكن كان من الواضح أن البلاد كانت موجهة إلى الجناح اليساري، نظراً لعودة المنفيين إلى البلاد. كانت الدولة الجديدة لعام 1928 قد انتهت بالفعل إلا أنه لم يكن من الواضح أي الأنظمة سيحل محلها بعد. ما يصدق على البرتغال يصدق على عالمها السابق وراء البحار. كانت الحقائق القديمة التي تتعلق بأفريقيا وأوروبا تتبدد.

كان الإرتياب الأوروبي يزداد بالعودة إلى البلاد، سواء فارين أو مطرودين دون أسف، لآلاف الأوروبيين من أفريقيا. نالت غينيا-بيساو، التي فُقدت فعلياً، استقلالها عام 1974 وتوحدت مباشرة بعدها مع كاب فيردي. أصبح كلُ من أنجولا (حينما كان رئيسها نيتو) وموزمبيق (حينما كان ماتشيل رئيسها) دولتين مستقلتين عام 1975، لكن هذا الاستقلال تبعه، مباشرة ولاحقاً، على التوالي حروب خلافة أكثر منها ثورة سلمية.

جنوب أفريقيا: تعكير صفو السلام

كانت حكومات جنوب أفريقيا لا محالة تراقب تطور الأوضاع في أفريقيا بقلق، فمنذ حدوث مذبحة شاربيفيللو عام 1960، والسياسات الداخلية لها تتعرض لهجوم متواصل.

كانت الأمم المتحدة، التي كان أعضاؤها الأفريقيون في تزايد، هي المنتدى للإنتقاد الدائم. بُذلت محاولات، بموجب المادة 39 من الميثاق، لوصف جنوب أفريقيا على أنها تمثل تهديداً لعملية السلام الدولية، إلا أنهم إلى الآن لم يفلحوا في ذلك. كانت الولايات المتحدة والمملكة المتحدة على استعدادٍ لرؤيتها تعكر صفو السلام، لكن لم يكن للعالم أن يترك جنوب أفريقيا وشأنها ولم يتمكنوا من حسم إمكانية فرض عقوبات. كان الجدال حول جدوى وفائدة، وبأي تكلفة يمكن تغيير حكومة جنوب أفريقيا بشكل سري ومعلن. كان العالم كما تفهمه حكومة جنوب أفريقيا في العقدين الأولين بعد الحرب في حالة تغيرٍ مستمر. وكحائلٍ بينها وبين التوغل الشيوعي، كان نفوذها الدبلوماسي يتضاءل. وبشكل مفاجئ، بدا أن الحكومة البيضاء في غير مكانها في أفريقيا الجديدة بنفس القدر الذي كانت عليه إسرائيل في الشرق الأوسط: في الواقع كان البلدان اللذان كانا يشتركان في حالة النبذ يسعيان إلى رفاهية مشتركة.

ومع ذلك جاء إعلان روديسيا للإستقلال من جانب واحد في الوقت الذي كان اقتصاد جنوب أفريقيا في تراجع مستمر، فشعرت الدوائر الحكومية في جنوب أفريقيا بقوة موقفها، ولا زال الحظر قائماً على المؤتمر الوطني الأفريقي ومجلس عموم أفريقيا. واسترد سجن جزيرة روبن، الذي يبعد عن جزيرة كاب تاون، سجنائه مرة أخرى. وفي قارةٍ تنعم بالاستقرار، حتى جنوب أفريقيا تبدو مكاناً آمناً يصلح للاستثمار فيه. على نحوٍ بهيج فاز الحزب الوطني، تحت رئاسة هندريك فيرورد، بالانتخابات عام 1966. كان مهندس التفرقة العنصرية عازماً على المضي قدماً في تطوير بانتوستا. كان هناك تشريعا ما يعمل بالفعل، إلا أنه في سبتمبر، تم اغتيال فيرورد، وخلفه وزير العدل جوهانيس فورستر (وجوهانيس معروفة لمتحدثي اللغة الإنجليزية ب جون) (ولد عام 1915)، وهو أحد خريجي مدرسة رؤساء الوزراء في جنوب أفريقيا، وهي جامعة ستيلينبوش، إذ كان عليه أن يظل في السلطة لمدة اثني عشرة سنة خطرة. كان ماضيه يطارده وهو ما أعاقه عن صياغة تصور عالمي متماسك عن جنوب أفريقيا، فبسبب معارضته الشديدة وهو في سن الشباب لتورط جنوب أفريقيا في الحرب العالمية عام 1939 وعضويته في حركة

Ossewabrandwag (وهي منظمة مؤيدة لألمانيا في الحرب العالمية الثانية) ألصقت به تهمة أنه مؤيد للنازية. كان لا يكترث للعالم الذي يتحدث باللغة الإنجليزية وكان يرى أنه من الأنسب أن يتولى جمهورية خارج رابطة الكومنولث. لم تكن لندن تمثل له وطناً بأي شكل من الأشكال. ولم يكن الأفارقة هولندي ما وراء البحار. إذ كانت لهم حضارة ولغة أنشأوها في أفريقيا. كل هذا تم التدرب عليه مراراً وتكراراً. في الواقع كان هناك انقساماً مريراً داخل الشعوب الأفارقة، كما ظهر ذلك جلياً في المعارك الانتخابية عام 1970 و1974، كان أحد الأطراف، وعياً منه بطبيعة العالم، يسعى لعمل بعض التغييرات البسيطة دون المخاطرة بسياسة التطور المنفصل ككل، إلا أن خصومهم كانوا على خلافٍ معهم، على سبيل المثال، بشأن الرياضة المختلطة. خلافاً لسابقه، لم يكن فورستر صاحب أيدولوجيا. كل ما أراده ببساطة أن ينأى بنفسه عن جميع هذه الانحيازات. كان التطور الوطني قد وُضع على مساره المعقد، وهو ما لن يوقفه. ومع ذلك، بمرور الوقت، يثبت أن التنفيذ أكثر صعوبة. بل لم يستطع هو نفسه أن ينكر تماماً أن هناك خطأً ما في الخطة.

كانت القضية الخارجية المركزية هي ما إذا كانت منطقة جنوب أفريقيا توقفت عند حدودها أم أنها تجاوزتها. فأخذت هذه المشكلة عدة أشكال. حيث أن الدولة كانت تدير جنوب غرب أفريقيا الألمانية تحت انتداب من عصبة الأمم منذ عام 1920. وكان هذا علامة على درجة تغير العالم الذي تقع خليفته الأمم المتحدة تحت ضغط على مدى فترة طويلة لإلغاء الوصاية. وفي عام 1966، بدأت المنظمة الشعبية لجنوب غرب أفريقيا في العمل على مكافحة وحدات جنوب أفريقيا. وفي عام 1970، أعلن مجلس الأمن عدم شرعية احتلال جنوب أفريقيا لما كان يشار إليها بناميبيا. وفي العام التالي اعترفت الأمم المتحدة بالمنظمة الشعبية لجنوب غرب أفريقيا (سوابو) باعتبارها الممثل المعتمد الوحيد لشعب ناميبيا. فهل كان على جنوب أفريقيا أن تتنازل ببساطة عن أي إقليم لا يندمج معها أم أنه كان عليها أن تحارب من أجله بكل ما أوتيت من قوة حتى وإن تطلب الأمر الدخول لأنغولا حيث يوجد قواعد لسوابو؟ وفي حالة الدخول إلى أنغولا، إلى أي مدى يمكنها أن تتورط للحصول على ما تريده. كانت ناميبيا حالة خاصة، إلا أن القضية التي

أثارتها تنطبق على جميع حدود جنوب أفريقيا. وكانت قوات جنوب أفريقيا مجهزة على نحوٍ جيد إلا أنه لا يمكن الإفراط في استخدامها. بل روديسيا نفسها لها نفس الحالة. فما الذي يمكن أن يحمله مصير روديسيا يؤثر على مصير جنوب أفريقيا؟ في البداية لم تكن جنوب أفريقيا تنوي السماح لنظام سميث بالسيطرة عليها، لذلك لم تمنحه اعترافاً دبلوماسياً رسمياً. وبمرور الوقت، حُث سميث على البحث عن حلٍ داخلي. وسواء تم إضعاف جنوب أفريقيا أو تدعيمها بإقامة حاجزٍ يحيط بها فإن هذه مسألة يطول الجدال حولها – ومثلها في ذلك مسألة هل كان على جنوب أفريقيا أن تتملق إلى جيرانها أو تجبرهم على شكل من أشكال التعاون، على سبيل المثال إخضاع دكتور باندا للترغيب والترهيب. فهل كان بإمكان الحكومة أن تنجح في إقناع الدول الأفريقية النائية، ولنقل ساحل العاج، في أن تبنى موقفاً أكثر تعاطفاً؟ لم يكن هناك إجابة بسيطة متفق عليها حول تعريف عالم جنوب أفريقيا.

وسط وشرق وشمال شرق أفريقيا: الجيران المتنازعة

جميع الدول التي تقع شمال وغرب روديسيا/موزمبيق (سوازيلند، وزامبيا، وملاوي، وتانزانيا) قد نالت استقلالها وانضمت جميعها لرابطة دول الكومنولث. خيمت الصراعات المجاورة على سياسات هذه الدول وجذبت إليها حكوماتها. وكل من يرغب في تحرير هذه الدول من الخارج كان يطلب الدعم والمؤازرة والملاذ الآمن قبل الهزيمة النهائية للاستعمار. كان التزامهم بالتحرير يسير جنباً إلى جنب مع إحياء اقتصادهم المحلي للتأكيد على أنها المالكة لأراضيها. كانت بالأساس نفس الثورة. كانت خطط التطوير الوطني هي العمل اليومي. فكانت حكومة زامبيا على سبيل المثال تعمل على مراحل وبشكل منظم لبسط سيطرتها على التنقيب عن النحاس. حيث كانت هذه الصناعة أساسية بالنسبة للاقتصاد والمصدر المهيمن على عائدات البلد من التصدير. من أجل ذلك، ترك هذا الاعتماد على النحاس الدولة مكشوفة، كما أثبت ذلك الأزمة العالمية عام 1973-1975، حينما هبط سعر النحاس إلى النصف. وهو ما أجبر كاوندا بعد سنواتٍ قليلة من الاستقلال أن يتخذ قراراً بأن الدولة ليست بحاجة إلا إلى حزبٍ واحدٍ، وهو

حزبه. سوف تصبح زامبيا دولة الحزب الواحد، على الرغم من كونه قائم على المشاركة، وهو وحده الذي يستطيع توجيه البلاد بفاعلية. على أي حال، كان على زامبيا أن تشمر عن ساعدها أمام العالم. لم يكن بإمكانها، وما كان ينبغي ألا تفعل، أن تكون مجرد مكان تغرس فيه الرأسمالية الغربية أو الشيوعية الشرقية غرسها.كانت القيم الأساسية لأفريقيا تميل إلى الشيوعية. وكانت المسيحية، على فهمها الصحيح، تعزز ولا تصطدم بهذه القيم. وعلى ضوء ذلك نشأت الإنسانوية في زامبيا بقبولٍ من الرئيس. من ناحية أخرى كان جوليوس نيريري، على الشمال من كاوندا، على الرغم من اختلاف اقتصاد بلده كثيراً عما عليه زامبيا، يكتب ويتحدث على نفس النسق من الأفكار. صدر تصريح من مدينة أروشا يعرض رؤية أفريقيا على أنها اشتراكية قائمة على القيم التقليدية، وهو ما افترض بأنها الرؤية السائدة. كلا الرجلين بدءا حياتهما كمعلمين ولازالت النبرة التعليمية قوية لديهما. لم يكن سوى الملك سبهوزا الثاني ملك سوازيلند، التي نالت استقلالها منذ عام 1986، الذي شعر بقدرته على الاستغناء عن الجانب الدستوري لمملكته دون إصدار إيضاح في عدد من صحيفة النيويورك تايمز. وفي ملاوي استحوذ هاستينغز كاموزو باندا على كثيرٍ من السلطات في يده. وإذا ذهبنا إلى الشمال أكثر، في كينيا، سنجد جومو كنياتا فعل نفس الأمر، حيث عززت التغيرات الدستورية المتوالية من سلطاته السابقة، حتى إذا وصل إلى الانتخابات الرئاسية وجد نفسه دون منازع. وبدخول السبعينات من القرن الماضي،أصبحت كينيا دولة ذات حزبٍ واحدٍ تقوم بدورٍ فعال، ذلك الحزب الذي كان يسيطر على جهازه جماعة الكيكويو وهم جماعة كنياتا نفسه. لم تصل معاهدة التعاون بين دول شرق أفريقيا، التي وقع عليها كلُ من أوغندا وكينيا وتانزانيا عام 1968، إلى أي شيء جوهري. كان لدى الرجال الكبار في كينيا نزعة قوية تجاه الرأسمالية المغامرة أكثر منها إلى مبادئ الاشتراكية الأفريقية. في شرق أفريقيا" البريطانية سابقاً" بخلاف غرب أفريقيا، لم تستولِ القوات المسلحة على السلطة على الرغم من أنه عقب الاستقلال دعت حكومات كينيا وتانزانيا على مضض القوات البريطانية للتعامل مع الاضطراب داخل صفوف الجيش. فقط في أوغندا تمكن قائد الجيش، عيدي أمين، من قلب نظام الحكم القائم على حزبٍ واحد وعزل الرئيس ميلتون أوبوتي الذي أسس لهذا النظام منذ الاستقلال. ويبدو

أنه لأسباب إسلامية* استهدف الأغلبية المسيحية، الإنجيلية والكاثوليكية على حدٍ سواء. كان رئيس أساقفة أنجليكاني ونائب مستشار وقضاة من بين الآلاف – ما بين 100,000 إلى 300,000 تقريباً – الذين قُتلوا في السنوات التالية على حكمه مباشرة. كان زميله الجنرال جوزيف موبوتو، منذ عام 1965، هو ما فرض النظام بنجاح ولكن بغير رؤية على الإقليم الممتد على دولة الكونغو الجارة. وهي الدولة التي كانت تتمتع بوحدة وطنية أفريقية، وهو ما يدل عليها رمزياً اتخاذ اسم جديد " زائير".

وفي شمال شرق أفريقيا، كان محمد سياد بري (ولد عام 1919)، الذي استولى على السلطة في الصومال عام 1969، أيضاً منشغلاً بقضية الهوية – فأوجد لهجة جديدة للغة، معززاً من استخدامها، ومقلصاً لغيرها من اللغات الإنجليزية والإيطالية، وحاول بكل ما في وسعه أن يوجد اللحمة بين العشائر لتصبح أمة. كان مستقبل أوجادين، ذو الكثافة العالية من السكان الصوماليين، لكنه داخل أثيوبيا، جرحاً ينزف. وظلت إرتريا أيضاً ذات إشكالية أخرى في القرن الأفريقي. وفي يوليو عام 1974 أبرم بري اتفاقية مع الاتحاد السوفيتي تمنح موسكو بموجبها تسهيلاتٍ بحرية في ميناء بربرة المتواجد في خليج عدن مقابل التزام الاتحاد السوفيتي بتدريب وتجهيز الجيش الصومالي. كانت الرايات التي تحمل صورة بري جنباً إلى جنب مع صور لينين وماركس، وهم رفقاء غير متوقعين للرجل الذي تدرب على يد قوات الشرطة العسكرية الوطنية في إيطاليا، تمثل تصريحاً عالمياً. وفي سبتمبر استطاع منگستو هايله مريم، وهو كولونيل آخر، الإطاحة بهايله سِلاسي في إثيوبيا والشروع في تدشين نظام ماركسي لينيني معترف به عالمياً، وهو ما أربكَ موسكو، إذ كانت المرحلة تُعد لإلغاء التحيزات.

الوحدة الأفريقية: بين الأمل والواقع

مع الوضع في الاعتبار ما يجري من عنف على الصعيد المحلي، نجد شيئاً من المفارقة في حقيقة أن مقرات منظمة الوحدة الأفريقية لا زالت في أديس أبابا. كانت الهوة بين الأماني وبين صورة العديد من المواقع التي جرى التخطيط لها أكبر من أن تُوصف. فقد عُقد آخر اجتماع لمنظمة الوحدة الأفريقية في مايو 1973 عندما كان هايله سِلاسي لا زال

على عرشه. كان المزاج العام في المدينة مختلفاً كثيراً عما كان عليه منذ عشرِ سنين مضت. وكانت إثيوبيا قد أصابها الجفاف والمجاعة وربما كانت على شفا الانهيار. ومع ذلك كانت أزمتها جزءاً من أزمةٍ كبيرةٍ طالت القارة كلها حيث تضاعف الدين العام أربع مراتٍ بين عامي 1970 و1976. فقد أصدر المؤتمر نداءً إلى النظام الاقتصادي العالمي الجديد يطالبه بتقديم زيادة كبيرة في المساعدات الإنمائية وإلغاء الديون الخارجية المستحقة. ووُضعت قضايا "الشمال/ الجنوب"، التي سوف نلقي الضوء عليها في الجزء اللاحق من الكتاب، موضع الصدارة. وقال أيضاً بأن المصادر الاقتصادية العالمية يجب أن تُوزع على أساس الحاجة. وفي مؤتمر عدم الانحياز، الذي أُشير إليه في آخر فصل، والذي عُقد في مدينة الجزائر، تمت الموافقة على هذا الاقتراح، كما فعلت ذلك أيضاً الجمعية العامة للأمم المتحدة في العام التالي له. تم وضع هذه المبادرات في سياق أزمة البترول – لكن هذه الحقيقة أيضاً هي ما جعلت من إقتراح إعادة التوزيع الكبيرة غيرَ محتمل. حيث أن الوفرة الزائدة من المساعدات تؤدي إلى تزايد حجم الفساد. وفي دولة تلو أخرى، هُمش المجتمع المدني أو أُزيل تماما لحساب السلطة المركزية، المتمثلة دائماً في السلطة العسكرية. وأصبح الاغتيال هو الوسيلة الطبيعية لإنتقال السلطة. وفي كثير من الحالات، كان الأفراد حاملي مثل هذه السلطة لا يميزون بوضوح بين الثروات الخاصة وثروات الدولة. نمت الحلقة المفرغة، دون وجود حل واضح يلوح في الأفق، فولّد الفقر عدم الاستقرار، وعدم الاستقرار زاد من الفقر. حتى هؤلاء الذين يعيشون في عالم ما وراء أفريقيا الذين كانوا يحملون نظرة أكثر تفاؤلاً تولد لديهم الشعور باليأس عندما علموا أن القمة القادمة للوحدة الأفريقية، المزمع عقدها في صيف 1975، ستُعقد في كامبالا، أوغندا، تحت رئاسة عيدي أمين، الذي أقل ما يمكن أن يقال عنه أنه لا يتحلى باللطف. خلال العقد الذي مضى، صعدت أفريقيا على المسرح العالمي، لكن يبدوا أن حجم مشاكلها الداخلية قوض من إمكانية أن يكون هناك صوت للقارة.